الفصل السابع عشر

جحيم من الشمال

لم تفطر الإنسانية إلا على السكينة والهدوء وحب السلام، ليشغل أفرادها بالبحث عن الرزق والتقدم في الحياة والنهوض بها إلى المثالية، ودائماً هناك طفرة تخرج عن الفطرة، نفوس (هجينة) لا تجد سكينتها إلا في العبث، تبدد السلام وتبعثر وجوده، نفوسٌ جُبلت على الشر والقتل وإضرام النيران فقط لأجل تحقيق النزوات والشهوات والأطماع.

نسمات الصبح الأولى هي الإعلان لانطلاق الشباب المقاومين من المُعلا نحو خورمكسر، فركبوا ثلاث سيارات هيلوكس بيضاء اللون حاملة على متنها نحو خمسة وعشرون رجلاً من مختلف الأعمار، شباناً وكهولاً، حمل كل منهم بندقية، وارتدى بعضهم سترة ذخيرة كثيرة الجيوب امتدت أمام صدورهم وحتى جنوبهم مشكلة بانتظامها نصف حزام، نظراتهم تشع لتسابق وهج الشمس الصاعد في تؤده نحو السماء، والثورة والحماسة المطلقة تلتمع في عيونهم، إنهم ماضون لمواجهة المعتدين ليعلِموهم أن العبث يجب أن يكون بعيداً عن أرضهم.

جلس شادي برفقة ستة شبان على سطح العربة الخلفية المكشوفة لأول سيارة في الطابور، سيارة القيادة التي تقل (رضوان) والذي كان جالسا إلى جوار السائق، شعر بحماسة كبيرة حين رآهم إلى جانبه، ومن قبلهم الرجال الذين بقوا لأجل حماية المدينة. ابتسم لنفسه بحماس

زائد مبعداً كل توتره وهو يتطلع في وجوه الجميع، خلف ملامحها ألف قصة قبل إعلان الرحيل، أما قصته فهي دمعات أمه وأخته ودعواتها له، اتسعت ابتسامته وزاد الأمل في نفسه، فأجمل شيء حصل عليه منذ انطلاقه هو جمعه هو ومن معه لأدعية ذويهم، لا شيء أجمل ولا أبهج للنفس من دعاء الأمهات لهم، إذ أن السيارات كانت تمر بعدد من المنازل لتقل رجالاً جدداً مثله، ليجتمعوا في مركز الشرطة الذي استولت عليه المقاومة وصار معقلا لهم، وسمع ورأى كل مقاومي المعلا وهم يتشاورون ويخططون لخطواتهم القادمة، تأملهم وقتها. الكل ترك ذويه، الكل حمل الأمل حين رفع راية المقاومة، وآمن أن كل رصاصة ستنطلق ستطلق صرخات الرفض الصارمة في وجه الغزاة، وستتهاوى قلاعه الظالمة أمام أصوات الحق، وستحمل في جسدها المعدني تباشير النصر القريب لا محالة. ملأ نفسه بالتفاؤل.

قطعت السيارات الطريق لتخرج من الجهة الشرقية من المدينة عبر الدكة، وتتجه بعدها شمالاً وصولاً إلى دوار (ريجل) والذي يفضي مباشرة إلى (خورمكسر). وما كادوا يتجاوزوه حتى تناهت إلى أسماعهم أزيز الرصاص والانفجارات من بعيد، وعدد من السيارات والحافلات تغادر المدينة وهي تقل الأهالي؛ أطفال ونساء ورجال، حملوا من متاعهم ما استطاعوا، بعضهم كانوا في حالة هلع وخوف، بدا الغضب على وجوه المقاومين، جحافل الغزاة تتسبب في طرد الأهالي من بيوتهم، وإن بقوا فلن يكونوا بعيدين عن تعرضهم لأذى نيرانهم، لابد أن يخمدوها قبل أن تلتهم المدينة خصوصاً والمحافظة عموماً، الحرب نار متى ما استعرت فإنها ستلتهم كل شيء دون استثناء.

استوقفهم سائق سيارة، رجل أربعيني، ملامح قلق وحيرة تعتلي سحنته، ملابسه غير مرتبة؛ سترته الزرقاء الداكنة كانت مفتوحة ويظهر تحتها قميصه الداخلي الأبيض، وعمامته ملقاة على كتفه الأيمن، أما مرافقوه فكانوا امرأة التحفت بسوادها فلم يظهر منها إلا يديها المرتجفتين وعينيها الشاحبتين وسحابة حزن وخوف وإعياء تطغى عليهما، إلى جوارها أربعة أطفال في الفصول الأولى من ربيع حياتهم، إذ أن أكبرهم وصل إلى ربيعه العاشر، وأصغرهم رضيع لم ير ملامح الربيع ولم يفنده بعد، يوشك أن يفتح عينيه على فصل جديد يقبل على مدينته، الأربعة كانوا يرتدون بجامات نومهم، لم يستعصِ عليهم أن يعرفوا بأن السائق هو رب هذه الأسرة الصغيرة الهاربة من نيران قتال طالتهم ففروا على عجل، نظراتهم ترتدي لباس الخوف، ولم يستعص على السائق أن يعرف بأن من هم أمامه مقاومون يسعون للدفاع عن المدينة، توقفت سيارة القيادة، فتوقفت بعدها السيارتين الأخريين، سمعه شادي وهو يقول لرضوان بتلعثم من شدة فزعه وارتباكه:

-الغزاة... إنهم يهجمون على المطار، والقتال لم يبدأ إلا منذ ساعة، هجماتهم عنيفة، قذائفهم ورصاصهم تطال أي شيء حول المطار، المباني السكنية لم تسلم من الأذى، أرجوكم كونوا على حذر.

سأله رضوان:

-ومن أي جهة يهجمون؟

-أظنهم من جهة الشمال، لا أدري أين بالضبط، تعلم أن المطار وما حوله مشغول بالمقاتلين والتجول والاقتراب منه ممنوع إلا للمشاركين، حين اشتد القتال خرجنا بما استطعنا.

-تابعوا دربكم حفظكم الله.

قالت المرأة وبان الخوف والحزن من كلماتها:

-منصورون بإذن الله.

تابع السائق دربه، وتابع رضوان ورفاقه طريقهم نحو هدفهم، وبعد عشر دقائق، وصلوا إلى المنطقة السكنية حول المطار، كانت خاوية، بصمات الرصاصات والقذائف من المعارك الأولى كانت لا تزال عالقة في بعض مبانيها، لم يكن يمشي بالشوارع إلا رجال المقاومة الذين كانوا من مختلف مدن عدن، كانوا نحو مائتي رجل، ومجموعة أخرى قابلوهم في الشارع المفضي للمطار، تفرقوا على طول الشوارع والبيوت المطلة عليه، ترجل رضوان وحده وأشار للبقية بالانتظار، وتقدم من أحدهم وسلم عليه وهو يقول في حزم:

-أين البقية؟

-الجميع بالداخل، القائد أوكل إلينا مراقبة المداخل المؤدية للمطار، إنه ينتظركم.

اكتفى بهز رأسه، وعاد لمقعده لتواصل المركبات تقدمها داخل المطار، وجدوا الرجال متفرقين قرب خلف الأبنية، المبنى الرئيسي المهيأ لمعاملات السفر، السواتر الأسمنتية التي كانت تنظم سير المركبات بشوارعه، حتى ساحة الإقلاع كانت بها سياراتهم، ومدرعتين بدأتا

بأنها من بقايا جيش غير موجود، الكل كان يوجه سلاحه صوب الشمال حيث كان أسلحة الغزاة تلفظ قذائف الآر بي جي والدوشكا، ومدرعاتهم تحاول الدخول من بوابة محطمة. المجال لم يكن يتسع لأي حديث ولا ترحيب، نحو ثلاثمائة رجل كانوا متفرقين ومنبطحين نحو الأرض ووابل رصاصهم ينهمر على كل عدو يظهر أمامهم، نظرات فاحصة نحو رضوان ومجموعته، ثم عادت صوب عدوهم، وعلى الفور أشار لرفاقه فتفرقوا، لم يكونوا بعيداً عن ناظريه، عدا كل إلى مكانه محنيا جسده، وكمنوا، وهجموا، تقدمت المدرعتان لتهجما على كل الآلات الثقيلة وتجمعات البشر المتحركين بالقرب منها، تقدموا وقد تزايد عددهم بعد لحظات، وزادت كفة الإطلاق من أفواه البنادق متزامنة مع تكبيرات تعلو من أفواههم.

انبطح شادي وشهر بندقيته مع البقية، عقد حاجبيه وحدق بعناية نحو الأفق رغم ألسنة الدخان المتصاعدة أمامه، وأصوات الأسلحة تصم أذنيه وتضج برأسه، وقذائف المدرعات تهز الأرض من تحته، إنها المرة الأولى التي يدخل فيها معركة حقيقة مثل البقية، لم يكن مدرباً ولا مستعداً لمثل هكذا موقف، لكنه ظل ثابتاً، يدفع رصاصات متتالية صوب هدفه الذي يراه فيرديه في أكثر محاولاته قتيلاً، يكبر مثل زملائه، ثم ينتبه لرصاصة أصابت أحدهم ليحمله اثنين ويبتعدان به، ويتقدم غيرهما، وقذيفة أصابت خمسة آخرون عن يمينه وعلى مسافة منه كانوا يزحفون مثله، ألصق وجهه بالأرض حين هوت على نحو مباغت ودوى الانفجار بعدها، شعر بأن البارود وتحطم الأرض الأسمنتية قد خنقه، رفع وجهه قليلاً

وسعل بقوة، ظل ستار الدخان حوله حتى ظن أنه وحيد بالساحة، فتلثم بعمامته؛ لكن صرخات الألم والأنين كانت تعلو قربه، ومن بين السحب الدخانية التي آثرت البقاء في الأرض رأى المشهد جلياً ارتعب.

رِجلٌ دون جسد، ويد دون صاحبها، وثلاثة تحولوا لكتل محترقة.

هلل بعض الرجال وهم يحملون الأحياء منهم في محاولة لإسعافهم بعيداً عن ساحة المعركة، وآخرون يحملون جثث رفاقهم، وشادي ينظر إليهم في ذهول وصدمة.

شيء من الرعب تغلغل في قلبه، في منزله كان يرى ويسمع كل ما يحدث قبل أن تنتقل رحى كل المعارك إلى عدن، الآن الوضع مختلف، أصبح شاهداً على الجرم، لم تكن ألسنة الدخان وحدها هي ما زكمت أنفه ونفذت لصدره، بل رائحة الدماء والأجساد المشوية أيضاً.

هل يجد الإنسان لذة انتصاره في حرق جسد إنسان مثله؟

ما الحيلة حين تكون الحرب هي الطريق لإحلال السلام؟

لم يستيقظ من حالته إلا على ربتة رضوان على كتفه وهو يقول في حزم:

- لا زلنا في البداية، ليرحمهم الله، كلنا أتينا إلى هنا لنحمل رائحة الموت ونحتملها، عليك الاستعداد لأسوأ من هذا.

نزع بصمة الرعب التي كادت تهوي بحصون صموده، لم يكن نزعاً يسيراً، ظلت بعض أجزائه ملتصقة بقلبه وذاكرته، فعقد حاجبيه وهو يقول في حزم:

-مستعد.

ابتلع كل شيء بصعوبة، وتقدم هذه المرة مع بقية المقاتلين ووابل رصاصهم لا يزال ينهمر عليهم، والأعداء يتقدمون تارة وينسحبون أخرى، ثم فاجأهم أن اختفوا، لم تبق إلا المدرعة، اعتقد الجميع أن عطبا أصابها فقرروا تركها، علت التكبيرات واستمروا في الهجوم والتقدم لدحرها، لكنهم توقفوا حين صاح أحدهم من الخلف قائلاً:

-هناك دبابات تقترب إنهم يحاولون الدخول إلى المطار.

صاح آخر

-ماذا تقول؟

-إنهم عند المدخل الرئيسي، إنهم يتقدمون دون توقف.

-كم عددها؟

-أربع دبابات.

الشمس تدق هاماتهم كما دق الخبر رؤوسهم، مدد جديد ينضم للجحافل الموجودة، ارتبك الجميع، لم يعد بالساحة أي جندي، هم فقط، دون مدد، دون خبرة قتال، وبما لديهم من بنادق وحسب، كيف سيوقفون دبابات الأعداء؟

في اللحظة التي سمعوا فيها جنازير الدبابات تهز الأرض، أطلق الأعداء أول قذيفة لتخترق برج المراقبة، وتبعثر حصاها فوق من هم قريب منها، وتواصل القصف، تساقطت أمطار الجحيم فجأة أحرقت مرآب الانتظار الكبيرة وهدت الأسوار، واستهدفت بعتادها الثقيل كل الموجودين، تطايرت الأجساد إلى أشلاء، وارتفعت ألسنة النيران في المكان، وصم الدوي

آذانهم حتى خالوا أنفسهم بأنهم قد فقدوا السمع، لا صوت يطغى على المكان إلا ضجيج الأسلحة.

وسط الحالة الصادمة لم يعد من مجال أمامهم إلا الانسحاب للتخطيط مجددا وإعادة ترتيب الصفوف، أشار رضوان لهم بذلك، بدا الغضب على وجوه البعض، فقال أحدهم:

-في وسعنا الالتفاف في مجموعات متفرقة والهجوم على من يقودون الدبابات.

رد رضوان في حدة:

-هل تظن بأن في إمكاننا ذلك وهم لديهم رجال متفرقون أيضا؟ هل تتخيل بـأنهم سيسمحون لنا بذلك؟

-الأمر يحتاج لتضحية، لا يمكننا حماية المطار دون ذلك، مجموعة تتقدم لتشغل المقاتلين، واخرى تلتف لتهجم على قائدي الدبابات.

-هذا جنون، المدرعات خلفنا أيضا، لننسحب قبل أن نقع فريسة ولن ننقذ شيء إن هلكنا جميعاً.

-إن كنت ستهرب فافعل، نحن سندافع عن مديتنا بكل قوة، لن نتخاذل.

-لم أقل هروب، قلت انسحاب.

انتهى الجدال على أثر مدرعة تندفع نحوهم بسرعة مجنونة وهي تطلق نيرانها، والمسلحون يطلقون رصاص بنادقهم من خلفها، تفرق جمع الرجال وهم يردون على الهجوم بمثله، وعادت الرصاصات الغادرة تخترق أجسادهم الوفية لأرضها، تساقط الضحايا في دقائق

معدودة بسرعة كبيرة، أهدافهم دقيقة، بدو مدربين على القتال، وتناثرت الدماء على الأرض وعلى من كان قريبا منهم، بدا للجميع أنه ما من خطط ستنجح وكل حمم جهنم تزل عليهم، انسحبوا فوراً ليغادروا المطار ويتركوه خلفهم.

هذه المرة أقبلت مطارق الغضب والثورة تدق قلبه، صرخات مكموتة ترددت في أرجاء صدره.

إنه الجحيم القادم من الشمال، إنه الجحيم الذي يريد من الفردوس أن تقترن به رغماً عنها، ما يحدث أمامه هو ساحة إعدام جماعية وكأن جيش البلاد بكامل عتاده قدم لإعدامهم.

-هذا لن يكون، لن نباد هنا.

أطلقها من صدره بقوة وغضب ممزقاً كل جزيئات الرعب التي ظلت عالقة في قلبه وأزاحها، وما كاد يتم كلمته حتى هوت قذيفة مدفعية خلف جمعهم مباشرة، أطارت موجتها من أطارته، وأحرقت من طالته، وقتلت بشظاياها من قتلة، كان مع المجموعة الأولى، أطاحت به الموجة المدوية أرضا اصطدمت جبهته بالأرض، وارتج رأسه بعنف وشجت جبهته، شعر بسيل الدماء تنهمر على جفنه الأيمن، أصوات الموت اختفت لثوان عن الضجيج في أذنيه لتصله بعدها مختنقة، لم يفقد وعيه بعد، حرك رأسه قليلا حاول أن يرفعه، فعجزت رقبته لأول مرة عن حمله، حرك يمناه وتحسس بندقيته لا تزال في يده، عليه أن يحافظ على سلاحه، إنه من سيبيد به العدو عندما ينهض، نظر حوله بعينين تعميهما غيمة ثقيلة، الدخان يحيط به والرجال من حوله متناثرون، منهم من يحمل جريحا ويمضي، ومنهم من يحزن على آخر مات

وتركه ومضى حين عجز عن أخذه، هل هذه عدن؟ أم أنه سافر إلى أرض الموت دون أن يدري؟ هل هذا وطنه حقا؟!

-شادي، حاول أن تنهض.

أحس بأحدهم يرفع ذراعه محاولاً حمله وإسناده إليه، انتبه له فوجده رضوان، حاول أن يتحامل على نفسه وينهض لم يستطع، خارت بقية قواه وفقد وعيه تماماً.

لم يتخيل أن ينتقل فجأة من واقع آمن إلى آخر مرعب، لم يتخيل أن تتجسد الصورة الثنائية الأبعاد إلى أربعة أبعاد أو ربما إلى خامسها؟ حتى في أعماق الغيبوبة، ظل الدوي يلعلع في أذنيه وتجويف دماغه، صوت جديد عليه أن يعتاد عليه ويألفه من الآن، لم يخض إلى الآن إلا مواجهة واحدة شرسة، والنتيجة سقوط المطار ووقعه في أيدي الغزاة.

-ماذا يعني هذا؟

-يعني ألا تتوقع دعما من الحكومة أبداً.

استيقظ على أثر جدالٍ حاد بين مجموعة الرجال كانوا قريبين منه، التفت فوجدهم يهتمون بعدد من الجرحى الذين كانت إصاباتهم خفيفة مثله بمعدات مخصصة للإسعافات الطبية، وقد أصيب بشج في رأسه تمت خياطته وتضميده، تحسسه وهو يفكر بأن من كانت إصاباتهم خطرة قد نقلوا إلى المستشفيات، تأمل الوجوه لم يعرف أحداً منهم بدوا له من سكان المدينة، لم يكونوا رفاقه الذين أتوا معه تأمل المكان كانوا بصالة شقة وكأن أحدهم استضافهم

ومصابيح الإنارة خافتة الإضاءة كتمويه للأعداء، اعتدل ليستمع للرجلين، فقال الأخير متابعاً حديثه:

-الجنود قد بدأوا يقلون من المدينة واليوم ضربت طائرة لهم القصر الرئاسي طمعاً في قتل الرئيس لكن يشاع أنه قد هرب إلى جهة مجهولة، هل تتوقع أن يبقى الجيش بعد هذا؟ هل تتوقع أن يبقى بعد اختفاء قياداته؟

-اللعنة، كنا نعقد أمل على ...

-لا تنتظر أملاً، حتى قاعدة العند في لحج تم الاستيلاء عليها، لذا لا بد أن تدرك بأننا نحن فقط من يجب أن يتصدى لهم ولا خيار آخر أمامنا سواه.

هدأ الآخر وهو يقول:

-مالذي سنفعله الآن؟

-الأعداء إلى اللحظة لا يزالون هادئين، لا شك في أنهم يحشدون قوى لمهاجمتنا في الصباح ليتغلغلوا في المدينة، سنكون على أهبة الاستعداد للهجوم من مواقع تراقب تحركاتهم وتهاجمهم، ظلمة الليل ستحمي رفاقنا وستتيح لهم فحص المنطقة وحمايتها من أي متسلل قادم من جهة المطار، إنهم في قلبه وحوله.

قال شادي:

-أين شباب المعلا؟

-تقصد رضوان ومجموعته، آه صحيح أنت واحد منهم، إنهم على مقربة من هنا يراقبون الشوارع المؤدية للمطار.

حمل بندقيته ونهض وهو يقول:

-شكرا سأذهب إليهم.

-الأفضل أن ترتاح حتى يأتي دورك وتستطيع المشاركة معنا، القتال سيكون شديداً في الصباح.

ابتسم وقال:

-لا تقلق، أنا بخير.

-لن تعرف مكانهم وحدك، فأنت غريب عن هنا، سأدلك على المكان.

شكره شادي، وارتدى عمامته وغطى بها رأسه فتوارت إصابته تحتها وخرج برفقة الرجل.

البيوت كانت شبة معتمة، هادئة، وبعضها كانت موحشة، لا ضجيج لأي كائن فيها، الشوارع مضاءة والحياة منعدمة فيها تماماً لا يسمع إلا صوت الريح وهي تناثر الأوراق والأكياس البلاستيكية، شبح الحرب هنا لم يحط إلى الآن إلا بظلمته، سأل شادي في حيرة:

-هل غادر السكان الحي؟

-نعم، الوضع لن يكون آمناً، حين وقع ما وقع أكثر العائلات نزحت، ربما قليلون من بقوا وخصوصاً من يريدون القتال بعد أن رحل ذويهم خارج المدينة.

تذكر هنا أمه وأخته، إنهما لا تزالا تنتظرانه، كور قبضته في ضيق، لابد أن تنتهي هذه المعركة هنا، ولا بد أن يصمدوا مهما كانت الظروف.

وحين وصلا الشارع الرئيسي المؤدي للمطار شاهد عدداً من المتاريس تقطعه تجاوزاه، قال الرجل له:

-استعدادا للغزاة أقمنا المتاريس لعرقلتهم في عدد من الشوارع، لا يزال الشباب يعملون على ذلك حتى نحيط المنطقة كلها، وبعضهم الآخر يكمنون في العمائر المطلة على المطار وأسطح المنازل والتي صارت معظمها خرابا وفي الأزقة أيضاً، سنحتاج بعض الوقت للوصول إليهم.

-وهل هذا سيعادل كفة تزايدهم؟

-لا، لكنه سيعرقلهم، ولا يزال هناك الكثيرون سينضمون إلينا لننتشر في المدينة ونكمن لهم في كل شبر منها، ليت معنا ألغاما نقدمها هدية لعرباتهم.

-وماذا عن المدرعتين، هل في وسعهما أن...

قاطعه بأسى:

-لقد فقدناها.

رد بحرقة:

-آه للأسف.

أكملا طريقهما باتجاه مسجد النور، هنا بدأت البيوت خراباً، رغم الظلمة التي قطنتها جعلتها موحشة وكأنها مهجورة منذ أمد بعيد، وتجاوزا آخر متراس، قال الرجل مشيرا لعمارة على تطل على الشارع وبنبرة محذرة:

-كدنا ندخل منطقة الأعداء، هنا يكمن رضوان ورفاقه، هذه النقطة وما خلفها مركزنا.

في تلك اللحظة، ظهر نحو ثلاث شاصات من العدم أمامهما تنطلق بسرعة في الشارع، والركاب بأولها يطلقون النار نحوهما دون توقف، تواريا في شارع فرعي عن يسارهما، واحتموا خلف المباني ورصاص رفاقهما المنهمر من أعلى المباني يحاولون التغطية عليهم وحمايتهم، تلا ذلك قدوم مدرعتين وركابها يشهرون أسلحتهم ويطلقون دون هوادة، مستهدفين ساكني العمارة، قُطع هدوء الليل وسكينته، وأقبل عدد من رجال المقاومة من خلف متاريسهم ليقتربوا ويحاصروا العدو المتقدم بوابل نيرانهم، وانتشر قتال.

في تلك الأثناء، كان شادي ورفيقه يعدوان حين قال:

-يبدو بأنهم يريدون تمهيد الطرق لدباباتهم.

رد الرجل في حزم:

-لن نسمح لهم، دعنا نتوارى في ذلك المنزل المحطم حتى تسنح لنا الفرصة للالتفاف والانضمام لمجموعة رضوان.

أيده شادي وتوقفا عنده، رغم خرابه الظاهر في تطاول القذائف والرصاص لأدواره الثلاث، إلا أن ماضيه كان عريقا، طلاءه وحصاه وأنواع شبابيكه وأبوابه وحتى أثاثه الظاهر من

غرفة جلوس بركن المنزل كانت من النوع الفاخر، سكانه أجبروا على تركه، ترك كل رخاء فيه ليبحثوا عن الأمان، وإن وجدوه هل سيجدون رفاهية أخرى في مكان ما؟ لا مقام لهم إلا في أحضان أرضهم، هو الاضطرار للفرار وحسب.

فتح أبواب أحد النوافذ -التي هشمت زجاجه موجات القذائف- على مصراعيه ثم وضع يديه وكاد يرفع قدمه ليصعد لكنه فوجئ بالرجل مرافقه يسقط خلفه، فانتبه لأن رصاصة غادره اخترقت صدغه بدقة مردية إياه قتيلا في ثوان، شهق فزعاً وألقى بنفسه نحو الداخل ليحتمي من أعداء لم يرهم حتى الآن ويستعد لهم، وما كاد يعتدل جاثيا على ركبتيه حتى أحس بحركة خلفه كاد يلتفت، إلا نقرة من فوهة بندقية على مؤخرة رأسه منعته وأثبتته وصاحبها يقول في غلظة:

-لا تتحرك وألق بندقيتك، وإلا أفرغت كل رصاصي في رأسك.

قشعريرة باردة سرت في جسده، ابتلع ريقه بصعوبة ورمى ببندقيته وهو غير راغب، يبدو من أن أنهم ينوون تأمين المنطقة لهم مثل ما يفعلون، وهذا المنزل بات وكر لهم، كاد يلتفت مجدداً، لم يسمح له غريمه في حق الالتفات فنقر نقرة أعنف وهو يقول في صرامة:

-من سمح لك، هيا... ضع يديك خلف رأسك... نفذ.

سمع أقدام شخص آخر تقترب منه، يبدو بأنه من كان كامنا في الزقاق واغتال رفيقه على حين غرة، سمعه وهو يقول في شماتة ثم يمسك بيديه محاولا تقييده ويقول:

-أسير من قبل المقاومة، سنعرف أسرارهم قريبا.

للحظة ظن أنه في أعماق حلم، بل كابوس، بمجرد أن يفز ويحرك جسده سريعا سيستيقظ منه، لم يكن مسموح له بأية حركة لا ترضي ذلك القناص، كان مرغما على الانصياع للتفاصيل المرعبة.

أسير!! توقفت كل حواسه عند تلك الكلمة، مالذي سيحل به؟ غزت رأسه كل جحافل الفكر الأسود، هؤلاء لن يدعوا شبرا فيه إلا واغتالوه في مقابل أن يعترف لهم بأسرار رفاقه، سيسألونه:

-كم عددكم؟ ما سلاحكم؟ أين مكامنكم؟ ما خططكم؟

هل سيكون الذراع التي ستلوي عنق أصحابه وتخونهم؟ الموت عنده أهون من البوح بشيء، سيصمت وسيصمد وليفعلوا ما يشاؤون أو حتى ليقتلوه المهم ألا يكون سببا في انهيار رفاقه والتضحية بهم، فجأة ظهر أمام ناظريه أمه وأخته، اضطرب، من لهما بعد موته ورحيل كل أهله، إن علما بموته هل سترحلان؟ ماذا سيكون مصيرهما؟ لم يكن لديه أي شخص ليوكل أمرهما له.

عاصفة هوجاء دوت في أصقاع فكره، يومه الأول في الجبهة كان صعبا جدا جدا رغم أنه قد ولى منذ قليل، وساعات اليوم الجديد قد بدأت، وفلا يهم تعداد الأيام في الجبهات، لا قيمة للوقت، المهم هي النتائج، والنتيجة الآن سوداوية حتى اللحظة في نظره.

لم تكتمل فرحة عدويه حينما انطلقت رصاصات نحوها وابل النيران نحوهما من نافذة جانبية، مردية بهما معاً، شعر بأن نجاته تمت بمعجزه، تنفس في ارتياح حين رأى رضوان يقفز

ليدخل عبر النافذة تبعه ثلاثة من رفاقه عبر باب الحجرة، كأنهم كانوا يقتشون المبنى، أسرع إليه، فسأله دهشا:

-كيف عرفتم مكاني؟

رد عليه:

-لقد لمحناكما أول ما ظهرت مركباتهم، الحمد لله أدركناك.

رد بحزن:

-أنا، لكن هو...

لم يكمل حين لمح رفيقين له يطلان من النافذة التي دخل منها، أدرك بأنهم عرفوا بأمره ويستعدون لأخذ جثته، فقال رضوان:

-إنهم يفعلون مثلنا، يحاولون التمهيد لمعداتهم الثقيلة للتقدم في الصباح، القتال عند المتاريس، ولن يهدأوا حتى يسهلوا مهمتها.

نهض من فوره وحمل بندقيته، وقال له بحزم:

-ونحن لن نستكين، هيا بنا لنردهم.

وانطلق معهم ليشاركهم القتال.

*****